

فانزل القرآن في هذه السورة لكي لا يضيق صدره الشريف () عما يقولون من أقوال، والابتعاد عن الدين الاسلامي الحنيف، والنبى (3) مكلف بالتبليغ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور فقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ، صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ () لمعنى العام خاطب الله سبحانه وتعالى نبيه ()، فقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ جُمْلَةً لَعَلَّ اسْتَفْهَامَ الْإِنْكَارِيِّ أَيْ: افْتَارَكَ يَا مُحَمَّدُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ مِنَ الْقُرْآنِ، لَمَّا فِيهِ مِنَ التَّبْلِيغِ فِي أَمْرِ الدَّعْوَةِ بِالتَّوْحِيدِ، يَضِيقُ صَدْرُهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ لَهُ اسْتَهْزَاءٌ وَالسَّخِرِيَّةُ وَكَذَلِكَ الْحَقُّ أَنْ كُلَّ مَنْ يَضِيقُ صَدْرُهُ لَمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ إِتْيَانِ مَا طَلَبُوا مِنْهُ مِنَ الْكَنْزِ، وَقَدْ وَعَدُوا أَنْ يُؤْمِنُوا لَوْ فَعَلَ عَمَّا كَانُوا يَقُولُونَهُ لَهُ مِنْ أَنْزَالِ كِتَابٍ لَيْسَ فِيهِ يَسَبُّ الْهَيْتَمِ (1)، وَان يَقُولُوا تَعَامِيًّا عَنْ تِلْكَ الْبَرَاهِينِ، وَعَبَّرَ بِالْإِنْزَالِ دُونَ الْإِعْطَاءِ ؛ وَالْمَعْجِزَةِ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِ إِنْزَالًا مِنْ غَيْرِ أَيْ سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الْكَسْبِ فَيَكُونُ لَهُ جَبَلٌ مِنْ ذَهَبٍ وَآخَرُ مِنْ فِضَّةٍ، وَقَدْ يَكُونُ يَدْفَعُ بِأَنْ يَكُونَ مَعَهُ مَلَكٌ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ اسْتِحَالَةَ ذَلِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٢) ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (1) أَنْ يَقُولُوا وَالْمَعْنَى يَكُونُ لَوْ أَظْهَرْتَ عَلَيْهِمْ بِمَا أُوحِيَتْ بِهِ لَوْلَا ، وَالْوَعِيدُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ لِيَتَابَعَ النَّاسُ لَهُ أَوْ جَاءَ هَلَا مَعَهُ مَلَكٌ مُصَدِّقٌ لِنَبِيِّتِهِ وَرِسَالَتِهِ لِيُطِيعُوا وَيُؤْمِنُوا بِهِ طَوْعًا بَلَا كَلْفَةً لَا تَبَالٍ لَهُمْ يَا خَاتَمَ الرُّسُلِ بِهِمْ وَبِهَذَا أَتَاهُمْ هَذِهِ وَلَا تَخْطُرُ بِبَالِكَ أَمْثَالُ وَانَمَا أَنْتَ نَذِيرًا وَمَبْلَغٌ لَهُمْ (٢) فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ () إِنْ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى الرَّسُولِ ()، وَغَيْرُ مِثَالٍ بِمَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ، بِمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ وَيُطْلَقُ أَلَسْنَتُهُمْ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ شَيْءٌ أَنْمَا جَزَاءُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ بِمَا فَعَلُوا، غَيْرُ مِثَالٍ بِمَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ مِنْ مَضَائِقَاتٍ لَكَ، الْجَنِّ وَالْإِنْسِ فَكَانَ يَضِيقُ صَدْرُهُ عَنْ مَنَازَعَةِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ عَابِدٍ وَمَعْبُودٍ سِوَى اللَّهِ، فَأَتَاهُ اللَّهُ مِنْ آيَاتِهِ مَا اتَّسَعَ لِكُلِّ مَا حَمَلَهُ وَصَغُرَ عَنْهُ كُلُّ شَيْءٍ أَحْتَمَلَهُ مِنَ الْمَشَاقِّ؛ وَذَلِكَ بِأَنْ أَخْرَجَ عَنْ قَلْبِهِ جَمِيعَ الْهَمُومِ وَمَا تَرَكَ فِيهِ إِلَّا هَذَا الْهَمَّ الْوَاحِدَ، وَلَا يَبَالِي بِمَا يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ مِنْ إِيْذَانِهِمْ، وَالْإِنَابَةِ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالِاسْتِعْدَادِ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزْوِلِهِ (٣). بِمَا أَمْتَنَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ مَنْنٍ تَتَّصِلُ بِوُضُوفِهَا الَّتِي حَمَلَهَا اللَّهُ أَعْبَاءَهَا ، وَهِيَ كَوْنُهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا سَيُوجَاهُ لَدَى قِيَامِهِ بِتَأْدِيَةِ الرِّسَالَةِ فِي قَوْمِهِ صَعُوبَاتٍ يَذْلُهَا اللَّهُ لَهُ ، وَلَمْ قَالَ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَلَمْ يَقُلْ أَشْرَحْ صَدْرَكَ؟ لِأَنَّ ذَلِكَ حَمَلٌ عَلَى بَابِ نُونِ التَّعْظِيمِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ النِّعْمَةِ، وَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الشَّرْحَ نِعْمَةٌ لَا تَصِلُ إِلَى الْعُقُولِ إِلَى كُنْهٍ جَلَالَتِهَا ، فَلَوْ كُنْتَ ضَيْقَ الْقَلْبِ السَّخَرُوا مِنْكَ،